التوجيهات التربوية
في
سورة الحجرات

د. محمد شاكر عبد الله الكبيسي

كلية الآداب/ علوم قران

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

لا يخفى على صاحب بصيرة، ومن كان له مسحة عقل أن القرآن الكريم له منهجاً واضحاً وسنن في التربية في سائر ميادين الحياة. وسورة الحجرات أحد هذه النماذج والتوجيهات التربوية التي تضمّنها كتاب الله تعالى فهذه السورة المباركة اشتملت على أسس في التربية للفرد والمجتمع والأمّة.

ونظراً لأهمية تلك التوجيهات ودورها الفاعل في تهذيب نفوس المجتمع؛ رأيت في قرارة نفسي تسليط الضوء على هذه التوجيهات ليكون المسلم على بيّنه من دينه وعلاقته مع خالقه العظيم ورسوله الكريم ومع إخوانه المسلمين.

ولقد تتبعت ذلك المنهج دراسة موضوعية حيث رتبتها في محاور ست. تكلمت في المحور الأول عن: الأدب مع الله تعالى وفي المحور الثاني: الأدب مع النبي ﷺ وفي المحور الثالث: الموقف من الفاسق وفي المحور الرابع: أدب التعامل مع الأخوة المختلفة وفي المحور الخامس: كرامة الإنسان وفي المحور السادس: ميزان التفاضل. وأخيراً الخاتمة.

وبالطبع لا أدّعي الكمال لبحثي هذا ولكن حسبي أني بذلت جهداً أرجو أن يكون مقبولاً عند الله تعالى ونافعاً لكل من يقرأه راجياً من الله أن يجعله في ميزان حسناتي، وأخيراً فالقرآن بحر عميق قراره وكل من يغوص به يأتي بنفائس الكنوز والدرر فأتمنى أن تكون محاور بحثي نماذج لبعض من تلك الكنوز والدرر الرائعة. وحسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

تشتمل سورة الحجرات على ثماني عشرة آية، وهذه الآيات تشتمل على محاور تتعلق ببناء المجتمع الخلقي وبتربية نفوس أبنائه تربية تتفق وما شرع الله تعالى لعباده وقد رتبنا هذه المحاور على وفق ما جاءت به السورة من توجيهات. ومن أهم هذه المحاور التربوية ما يأتي:

١. الأدب مع الله تعالى:

لا يخفى ان الأدب مع الله تعالى ينبع من الأيمان به والأيمان– كما هو معروف– اعتقاد بالقلب: أي أن المؤمن هو من يعتقد بقلبه بأن الله تعالى خالق الكون رب العباد وانه واحد لا شريك له بيده ملكوت السماوات والأرض تجب طاعة الناس جميعاً له سبحانه، هذا الاعتقاد القلبي الذي ينبغي لكل مسلم أن يدركه وان يكون هذا الشعور داخل قلبه، وحيد تتجاوز الاعتقاد بالقلب، تصل إلى الأمر الثاني من لوازم الأيمان، وهذا الأمر هو التصديق بالعمل، فلا يكفي المؤمن الاعتقاد وقد قيل: لو صدقوا في الاعتقاد لصدقوا في العمل، والقرآن الكريم ينعى على الناس الذين لا يعملون لأن الأيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، فالمؤمن ملزم بأداء ما أوجب الله تعالى من العبادات والمعاملات وغيرهما. وحين يتوافر الاعتقاد بالقلب والتصديق بالعمل، يصل إلى المرحلة الثالثة التي يكتمل بها الأيمان وهو الإقرار باللسان. **والإيمان بإيجاز: اعتقاد بالقلب، وتصديق بالعمل، وإقرار باللسان**(١)، والمؤمنون أصحاب رسول الله ﷺ كان يتمثل فيهم هذا الذي ذكرناه هنا من شروط الأيمان فكان المؤمن منهم يعتقد الاعتقاد الجازم بصدق محمد ﷺ في التبليغ بدعوته وكونه نبياً، وكان الصحابة بعد ذلك يصدقون بعملهم، انهم رهبان الليل في الطاعة فرسان النهار في الدفاع عن العقيدة ثم انهم كانوا يأمرون الناس بالمعروف وينهونهم عن المنكر. وهكذا درج التابعون وتابعوهم ومن كل هذا تأدبوا بأدب الإسلام وبأدب الله تعالى فكانوا يتأدبون بأدب الإسلام ومن هذا الأدب، الأدب مع الله ان لا يسبق العبد المؤمن الهه في أمر أو نهي ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم ولا يتجاوز على ما يأمر به وينهى عنه ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأياً مع خالقه تقوى منه وخشية وحياء منه وأدباً(٢).

فليس من السلوك السوي ان يتعجل المؤمن طلباته في أمور الحياة لأن الله تعالى اعرف منه بما هو في صالحه ولأن الفرد المخلوق ليست له تلك النظرات البعيدة في فائدته في دنياه وآخرته فهذه الطلبات لا تنم عن إيمان عميق، ولقد قص علينا القرآن الكريم طائفة من مقترحات كثير من النّاس على أنبيائهم من أجل ان يؤمنوا وحين يتحقق قسم مما يطلبونه من أجل إقامة الحجة عليهم نرى منهم من يركب رأسه ويصر على عناده واستكباره فهناك من الأقوام من اقترح نزول مائدة من السماء من أجل ان يؤمن ويصدق ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن**

﴿ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ولماذا طلبوا ذلك ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾. وهناك من آمن وهناك من أصر على عناده.

وهناك من اقترح على الأنبياء مقترحات: أين الجنة التي يأكل منها؟ أين الملك الذي يعينه؟ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ إلى آخر هذه المقترحات والطلبات التي تكاد لا تنتهي وكان جواب النبي بذلك الرفق والتعجب من هذه العقول التي لا تكف عن رسم المنهج لمن هو مكلف برسم المنهج، ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

هذه المقترحات إذن لا تتفق والأيمان الحق لأن الأيمان الحق بمعناه الإجمالي «الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ولا رب غيره... فهو المالك المدبر، وربوبية الله على خلقه تعني تفرده سبحانه في خلقهم وملكهم وتدبير شؤونهم. أي ان الله ﷻ هو الفاعل المطلق في الكون بالخلق والتدبير والتغيير والتسيير والزيادة والنقص والإحياء والإماتة وغير ذلك من الأفعال»[٣]. وإذا كان الأمر كذلك فليس إذن من حق الإنسان المخلوق الضعيف ان (يحشر) نفسه؛ طلبات لا تتفق ومكانته المتمثلة بضعفه وحاجته إلى الله تعالى في كل أمر كما إن السلوك المتمثل بالاقتراحات منافٍ للعبودية (عبودية الله تعالى) «فالمخلوقون كلهم عباد الله منهم الأبرار والفجار.... فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب غيره...»[٤].

٢. الأدب مع رسول الله ﷺ:

افتتح الله ﷻ السورة بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ لأن أصحاب النبي عرفوا الأيمان وحقيقته وذاقوا طعمه وحلاوته فغذّى أجسامهم وقوى نفوسهم فأثمر في قلوبهم حب الله وحب الرسول والأدب معهما وعرفوا أن حقيقة طاعة الله في طاعة الرسول، فعلمهم إيمانهم أن محمداً عبد الله ورسوله وصفيّه وخليله آمن بالله حق الأيمان دون شرك أو عصيان وتنزه عن ارتكاب الآثام التي تخلّ بمقام النبوة العظيم عرفوا أن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين عرفوا هذه المكانة للنبي من كتاب الله العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بقوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

[الأحزاب:٤٠] في هذه الآية الكريمة جاء ذكر الذين آمنوا مع ذكر الله وذكر رسوله لأن الأيمان لا يكون إلاّ بالمحبة والطاعة للرسول ومحبة الرسول وطاعته هي محبة وطاعة لله، فالأيمان أعظم النعم التي يمن بها الله ﷻ على خلقه لقد منَّ الأعراب بإسلامهم على رسول الله وكأنهم أصحاب فضل عليه فنزل تبعاً لذلك قوله ﷻ ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ وأعظم منّة منَّ الله بها علينا هي بعثة النبي محمد ﷺ يقول تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] في هذه السورة تتجلى معاني التربية في أبهى صورها عن طريق ربط الأيمان بالقلوب وتثبيته بوسائل المحبة ويقول تعالى في السورة نفسها ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾.

كيف حبب الله الأيمان وزينه في القلوب وجعله طريقاً للإيمان بالله والرسول والأدب معهما. يقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم: ٩٦] لقد أرتبط الأيمان بمحبة الله ورسوله وطاعتهما ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[النساء: ٨٠]، جاء رجل إلى النبي يسأل: قال متى الساعة فقال له النبي ﷺ: **ما أعددت لها؟** فقال: يا رسول الله ما أعددت لها كثير صيام ولا صدقه الا إني أحب الله ورسوله فقال له النبي ﷺ: **أنت مع من أحببت**(٥)، فالأيمان الحقيقي هو أن يكون الولاء العاطفي بكليته للنبي ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٦] فهذا الترابط يتجلى فيه الترابط الأسري فأزواج النبي أمهاتنا والرسول هو الأب لكل مؤمن كل هذا سببه الأيمان الذي يجعل المحبة للنبي أكثر من النفس ولقد كشف القرآن سبب ذلك. يقول تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨] وحقيقة المحبة تكون بالأتباع يقول تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقد تدبر القرآن بإدخال محبة النبي في قلوب المؤمنين بأن وصفه رحمة للعالمين وذو خُلق عظيم ودمج ذكره مع ذكر الله في الآية السابقة وجمع بينهما في توحيد الطاعة ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، لقد رفع الله ﷻ منزلة النبي عالياً حتى انه صلى عليه ﷻ وصلت عليه ملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وخاطب الأنبياء

بأسمائهم وخاطبه بقوله يا أيها النبي، يا أيها الرسول وأقسم به في سورة الحجر ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ ﴾ [الحجر: ٧٢] وقرن اسمه مع اسمه في نداء الصلوات يقول حسان بن ثابت[٦]:

وشَـــقَّ لـــه مـــن إســـمه ليجلّـــه ففـــي الأرض محمـــود وهـــذا محمّـــد

لقد فهم المؤمنون قول النبي ﷺ «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[٧] وفي سياق هذا الحديث روى عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء الا نفسي. فقال النبي ﷺ: **لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**، قال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي فقال ﷺ: **الآن يا عمر**[٨].

- عذب زيد بن الدثنة أشد العذاب فسأله أحد المشركين أتتمنى محمد مكانك وأنك جالس في أهلك فقال «ما يسرني أنا في أهلي ورسول الله يشاك بشوكة»[٩].
- امرأة في معركة أحد فقدت أهلها وأولادها فجاءت سائلة حتى ظن الصحابة انها قادمة لتسأل عن أحوال أهلها وأولادها وأخبروها بأحوالهم فقالت ما لهذا جئت أسأل فقالوا عن من تسألين فأخبرتهم إنها جاءت تسأل عن النبي فأخبروها بحياته فقالت «كل مصيبة بعدك جلل»[١٠].

ومن ذلك ما ذكره عروة بن مسعود القريشي حين أرسلوه ليفاوض النبي ﷺ في الصلح في قصة الحديبية قال: دخلت على الملوك كسرى وقيصر والنجاشي فلم أر أحدا يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمد محمدا، كان إذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيما له[١١].

وتتمثل محبة رسول الله ﷺ بكونه الداعي إلى طاعة الله ومحبته، «ثم بعد محبة الله تعالى محبة رسوله محمد ﷺ لأنه هو الذي دعا إلى الله وعرف به وبلغ شريعته وبين أحكامه فما حصل للمؤمنين من خير في الدنيا والآخرة فعلى يد هذا الرسول ولا يدخل أحد الجنة إلا بطاعته وإتباعه»[١٢].

وهذا الكلام الذي نقلناه هنا إنما يتطابق مع حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الأيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب**

المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[١٣].

ولمكانة محبته ﷺ قالوا: «وكل محبة للبشر فإنما تجوز تبعاً لمحبة الله وتعظيمه كمحبة رسول الله ﷺ وتعظيمه فإن أمته يحبونه لمحبة الله له ويعظمونه لإجلال الله له»[١٤].

إذن فمحبة النبي والأدب معه ﷺ أمر لازم على أمته إلى أبد الأبدين؛ لأن التأدب والمحبة اعتراف بالجميل الذي قدمه النبي ﷺ ولا جميل أعظم مما قدمه النبي ﷺ إلينا، من هذا وغيره تناولنا بعض المحاور في الأدب معه ﷺ قسمناها على ثلاثة محاور:

أ- عدم التقديم بين يديهِ ﷺ.

ب- عدم رفع الصوت عنده ﷺ.

جـ- عدم مناداته من وراء الحجرات.

أ- التقديم بين يدي الله ورسوله:

ويتمثل التقديم بين يدي الله ورسوله بالاقتراح على الله ورسوله وبالقول في أمر قبل قول رسول الله ﷺ.

وهذا التوجيه يرشدهم إلى أصول التعامل مع قيادة الأمة الدينية والدنيوية المتمثلة بالنبي محمد ﷺ.

فكأن القرآن الكريم يقول لهم: لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا لا في خاصة أنفسكم ولا في أمور الحياة من حولكم ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله[١٥].

والوقوف عند هذه الآية يقتضي الوقوف عند أسباب النزول، كما يقتضي الوقوف عند الأحكام التي ترتبت على ذلك ومن أسباب النزول ما ورد من أن الرسول ﷺ: «لما أستقر رسول الله بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدئوه بالمسألة حتى يكون عليه الصلاة والسلام هو المبتدئ، وقيل: إن أناسا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا وكذا فكان كذا وكذا فكره الله تعالى ذلك وقدم فيه»[١٦].

وقيل بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سرية من سبعة وعشرين رجلاً عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فقتلهم بنو عامر بن الطفيل إلا ثلاثة نجوا فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بنو عامر لأنهم أعز من سليم فقتلوهما وسلبوهما ثم أتوا رسول الله

فقال بئسما صنعتم كانا من سليم أي كانا من أهل العهد لأنهم كانوا معاهدين والسلب ما كسوتهما فوداهما رسول الله ﷺ فقال ونزلت أي لا تعملوا شيئا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ.

وقيل أن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾.

وقال بعضهم أن الآية عامة في كل قول وفعل إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه في الجواب وأن لا يمشي بين يديه إلا للحاجة وأن يستأني في الافتتاح بالطعام(١٧).

ويطول بنا المقام لو أردنا أن نستعرض الروايات كلها في أسباب نزول هذه الآية الكريمة وخلاصة ما يمكن أن يقال هنا أن الله تعالى نهى المؤمنين أن يتقدموا بقضية من القضايا باقتراحاتهم وأن يقطعوا بأمر من الأمور قبل معرفة رأيه ﷺ في القضية التي يجري الحديث عنها في مجلسه.

وكان من أثر هذا التوجيه الكريم جملة أمور منها: أنه ما عاد هناك من يتعجل بأمر من الأمور فيسبق النبي ﷺ بإعطاء توجيه أو بذكر مقترح أو تخطيط أو ما أشبه. بل أنهم كانوا جميعا ينتظرون ما يقوله هو ﷺ أولا ثم يتحدث المتحدثون في تلك القضية من أذن له بالحديث. بل قد ذهبوا إلى أكثر من ذلك فكان رسول الله ﷺ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه والمكان الذي هم فيه وهم يعلمونه حق العلم فيتحرَّجون أن يجيبوا إلا بقولهم الله ورسوله أعلم خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله(١٨).

ومما يدل على أنهم كانوا يتحرجون ويتأدبون غاية الأدب مع رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ سأل في حجة الوداع أي شهر هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس هذا ذا الحجة؟ قلنا بلى قال أي بلد هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس البلد الحرام؟ قلنا بلى يا رسول الله.

إذن وبعد عرض هذه السورة النادرة من صور الأدب المشرق مع رسول الله ﷺ يمكن أن نقول أن ما أشارت إليه الآية السابقة هي: مكانة النبي ﷺ في قلوب أصحابه ومقدار الخضوع والحب اللذين صنعهما الإسلام في نفوس ذلك الجيل جيل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

ب- عدم رفع الصوت عنده ﷺ:

ومما ورد في حقوق النبي ﷺ في هذه السورة هو عدم جواز رفع الصوت عنده وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ ﴾ [الحجرات: ٢]، ويمكن أن ننظر في أثر نزول هذه الآية فما ورد في ذلك: «عن أنس بن مالك ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي وجلس في أهله حزينا ففقده رسول الله ﷺ فأنطلق بعض القوم إليه فقالوا له تفقدك رسول الله ﷺ مالك؟ فقال أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال النبي ﷺ لا بل هو من أهل الجنة قال أنس ﷺ فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة»[١٩].

ومما يتصل برفع الصوت هو الجهر به ومعنى ذلك أنه لا يجوز بأن يجهر المسلم بصوته كما يجهر مع أقرانه من المسلمين فللنبي ﷺ حق على المسلمين جميعاً وهذه الخصوصية جعلته أهلا للتقدير والاحترام البالغين، «فالأول نهي عن رفع الصوت فوق صوته وهذا نهي عن مساواة جهرهم لجهره عليه الصلاة والسلام فإنه المعتاد في مخاطبة الأقران والنظراء بعضهم لبعض ويفهم من ذلك وجوب الغض حتى تكون أصواتهم دون صوته...»[٢٠].

وقد أمرهم القرآن الكريم بوجوب غض الصوت عنده ولذلك كان الصحابة الكرام يتأدبون بأدب الإسلام فلا يرفعون أصواتهم في مسجد رسول الله ﷺ بل إن الذي يرفع صوته يكون عرضة للتعزير من ولي الأمر. «وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً...»[٢١].

وقيل عن الجهر بالصوت أنه يعني المخاطبة باسمه وكنيته وأشار القرآن الكريم إلى هذا السلوك- المخاطبة بالجهر ورفع الصوت- يحبط العمل ويذهب بالأجر.

جـ- المناداة من وراء الحجرات(*):

والمناداة من وراء الحجرات جزء من السلوك الذي يحتاج إلى الإقلاع عنه وتركه لأنه لا يدل على ذوق سليم ولا على عقل راجح وقيل عن هؤلاء الذين كانوا ينادونه من وراء الحجرات أنه من تميم، «وقد قدم وفد تميم وهم سبعون رجلا أو ثمانون رجلاً منهم الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب بن زرارة وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم فأنطلق معهم عينية الفزاري... حتى أتوا رسول الله ﷺ فنادوه من وراء الحجرات بصوت جاف يا محمد اخرج إلينا ثلاثا فخرج إليهم رسول الله فقالوا يا محمد إن مدحنا زين وإن شتمنا شين نحن أكرم العرب فقال رسول الله ﷺ كذبتم بل مدح الله الزين وشتمه الشين وأكرم منك يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم فقالوا أتيناك لنفاخرك فذكره بطوله وقال في آخره: فقال التيميون والله إن هذا الرجل لمصنوع له لقد قام خطيباً فكان أخطب من خطيبنا وفاه شاعرا فكان أشعر من شاعرنا وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾(٢٢).

وهذا الذي نقلناه هنا يمثل إحدى الروايات في سبب نزول هذه الآية الكريمة. وهناك رواية عن عكرمة عن ابن عباس: «أنهم أناس من بني الصغير أصاب النبي ﷺ من ذراريهم فأقبلوا في فدائهم فقدموا المدينة ودخلوا المسجد وعجلوا أن يخرج إليهم النبي ﷺ فجعلوا يقولون يا محمد أخرج إلينا وذكر الخفاجي أن النبي ﷺ بعث إلى قوم من العرب هم بنو الصغير سرية أميرها عينية بن حصن فهربوا وتركوا النساء والذراري فسباهم وقدم بهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام فجاء رجالهم راجين إطلاق الأسرى فنادوا من وراء الحجرات فخرج ﷺ فأطلق النصف وفادى الباقي.

ولا يمكن أن نواصل نقل الروايات التي ذكرت في سبب نزول هذه الآية الكريمة للتشابه فيما بينها ولأن المقام يطول وحسبنا أن نعلم أن السبب في نزولها سلوك طائفة من القوم بصورة ليست مما يحمد صاحبها وهو الوقوف خارج الدار والمناداة وربما بصوت مرتفع يا محمد يا محمد، إن هذا ليس الأدب المرجو مع عامة الناس فكيف بخاصتهم بل فكيف بسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ ولذلك نهاهم الإسلام عن ذلك وأعطاهم في هذه الآية درساً سلوكياً أخلاقياً في أصول مناداة النبي ﷺ وأصول الحديث معه كذلك»(٢٣).

وكان في هذه الآية النداء لتقرير ما ينبغي من تأدب للقيادة وتوقير وكان هذا وذلك من التوجيهات والتشريعات في السورة(٢٤).

وقد عقبت الآية الكريمة بعد تعليمهم أصول المناداة، عقبت بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم لكان الصبر خيرا لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم النبي ﷺ.

ولقد تعلمت الأمة الأدب بعد هذا الخطاب العظيم في هذه السورة فتعلموا توقير العلماء وأهل الذكر أيما توقير فمن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يذهب إلى أبيّ بن كعب في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه فيقف عند الباب فلا يدق الباب عليه حتى يخرج فأستعظم ذلك أبي منه فقال له يوماً: هلا دققت الباب يا ابن عباس؟ فقال العالم في قومه كالنبي في أمته وقد قال الله تعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

ويحكى عن أبي عبيد أنه قال: «ما دققت باباً على عالم حتى يخرج في وقت خروجه»(٢٥).

من كل ما تقدم ندرك أن هذا الأمر وهو أصول الاستئذان أصبح عند المسلمين درساً عظيماً من دروس السلوك.

٣. الموقف من الفاسق:

إذا كان من الضروري أن نقف عند **(فسق)** لغويا فإننا نجد أن أهل المعجمات قد وقفوا عند معنى هذه المفردة في «فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها وفسق الرجل يفسق ويفسد أيضا عن الأخفش فسقا وفسوقا أي فجر يقال فسق عن أمر ربه أي خرج الفسيق الدائم لفسق والفويسقة الفأرة...»(٢٦).

وعند الزمخشري «فسق عن أمر ربه خرج...»(٢٧).

وهي: «الترك لأمر الله فسق يفسق فسقا فسقاً...»(٢٨).

ويقف عندها صاحب التاج قائلاً «الفسق الترك لأمر الله ﷻ والعصيان والخروج عن طريق الحق سبحانه، قال الليث: وهو الفجور كالفسوق بالضم وقيل هو الميل إلى المعصية...»(٢٩).

وفي تهذيب اللغة: «الفسق التملك لأمر الله وقد فسق يفسق فسوقا وكذلك هو الميل عن الطاعة إلى المعصية...»(٣٠).

على أن مواصلة النظر في كتب اللغة لا يزيدنا معرفة بأصل هذه اللفظة إذ إن معناها هو الخروج عن الإسلام في قضية من القضايا أو أكثر من قضية.

على أن طبيعة البحث تقتضي النظر فيما ورد في الاصطلاح وهي عند المفسرين تحمل المعنى نفسه «فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من مكانها وفسقت الفأرة من حجرها إذا خرجت منه للعبث والفساد»(٣١).

والمعنى نفسه عند الآلوسي «ففسق عن أمر ربه أي فخرج عن طاعته سبحانه وأصله من فسق الرطب إذا خرج عن قشره والظاهر أن الفسق مما تكلمت به العرب من قبل...»(٣٢).

والقرآن الكريم هنا يوجه المسلمين ويرشدهم إلى التثبت من الأخبار ويحثهم على عدم أخذ الناس دونما تأكد لأن أخذ الناس ومحاسبتهم دونما تأكد من شأنه أن يحبط الأعمال ويذهب بأجره ومما ورد في أسباب النزول «قدمت على رسول الله فدعاني إلى الإسلام فدخلت به وأقررت به ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته وترسل إلي يا رسول الله رسولاً لأبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث من استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه أحتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أن قد حدث في سخطه من الله تعالى ورسوله فدعا سروات قومه فقال لهم: إن رسول الله كان وقت لي وقتا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة وليس من رسول لله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسول الله إلا من سخطه فانطلقوا بنا نأتي رسول الله وبعث رسول الله الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده ما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد إلى ان بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله فقال إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث وقد فصل عن المدينة قالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم إلى من بعثتم؟ قالوا إليك، قال ولم؟ قالوا إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله قال: لا والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني ولا أقبلت إلا حين أحتبس علي رسول الله ﷺ خشية أن يكون سخطه من الله تعالى ورسوله فنزل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ ﴾(٣٣).

وبعد فإن هذه الآية الكريمة وإن كان لها سبب نزول وهو هذا الذي نقلناه عن كتب التفسير غير أن العبرة والتوجيه السديد للأمة من خلال هذه الآية الكريمة هو أن على المسلم أن يتثبت– كما ذكرنا– قبل أن يحكم في قضية من القضايا فالتثبت واجب على كل مسلم.

٤. أدب التعامل مع الإخوة المختلفين

من طبيعة الناس ان تختلف ولكن الاختلاف الذي يؤدي إلى النزاع بل الاقتتال ينبغي الوقوف منه بحزم ولذلك أمر الله تعالى المسلمين ان يصلحوا بين المتنازعين من المؤمنين وهذا هو الأسلوب التربوي الذي يحسن بالمؤمنين ان يقوموا به وهنا ينبغي الوقوف في ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

وكما نرى في أدب الإسلام ان القرآن الكريم أشار إلى ضرورة الإصلاح بينهما.

لقد نزلت هذه الآية الكريمة في قتال بين الأوس والخزرج... فقد قيل للنبي ﷺ لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق إليه وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون فلما انطلق إليه قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك فقال رجل من الأنصار والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ ﴾[٣٤] وفي رواية «ان النبي عليه الصلاة والسلام كان متوجهاً إلى زيارة سعد بن أبي وقاص في مرضه فمرّ على عبد الله بن أبي بن سلول فقال ما قال فرد عليه عبد الله بن رواحة ﷺ فتعصب لكل أصحابه فتقاتلوا فنزلت فقرأها عليهم فاصطلحوا وكان ابن رواحة خزرجياً وابن أبي أوسياً...»[٣٥].

وأياً كان السبب في ذلك فإن حصل الخلاف فالإصلاح أول الأمر واجب، ومما ورد في ذلك ان النبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الله بن مسعود «**يا بن أم معبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة قال الله تعالى ورسوله اعلم قال لا يجهز على جريحها ولا تقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها وذكروا ان الفئتين من المسلمين إذا اقتتلتا على سبيل البغي منهما جميعاً فالواجب ان يمشي بينهما بما يصلح ذات البين فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغي صيّر إلى مقاتلتهما وانهما إذا**

التحم بينهما القتال لشبهه دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقه فالواجب إزالة الشبهه بالحجج النيرّه والبراهين القاطعة واطلاعهما على مراشد الحق...»[٣٦].

وعلى ذلك هي التي تقاتل مع التمسك بعدم الإجهاز على الهارب أو قسمة ما يقع بأيدي الفئة المنتصرة أو الإجهاز على جريح أو ما أشبه ذلك مما يجري بين المسلمين وبين غيرهم ممن لا يؤمن بالله ولا يريد دين الحق ولقد أشارت الآيات في هذه السورة لسبب ذلك ويبدو ذلك في قوله تعالى ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾.

وهذا القصر إنما يشير إلى المكانة التي تربط المؤمنين وهذا الرابط رابط الأيمان لا ينبغي أن يعلو عليه شيء. وعلى هذا فإذا اقتتل اثنان أو جمعان من المسلمين فعلى الإمام الإصلاح بينهما بالدعاء إلى حكم الله تعالى فإن تعدّت إحداهما ما جعله الله عدلاً بين خلقه وطلبت العلو بغير الحق ورضيت به الطائفة الأخرى قاتل المسلمون الطائفة الباغية حتى ترجع إلى حكم كتاب الله فان رجعت بعد القتال أصلح بينها وبين الطائفة الأخرى بالعدل والإنصاف ولا يكتفي بالمتاركة والمحاجزة والكف عن القتال بل لابد من الإصلاح بالعدل»[٣٧] على ان علينا ان ندرك ان الأصل في الإسلام إقامة العلاقات الطيبة بين المسلمين وان هذا الأمر يحصل ولكنه ليس القاعدة العامة إنما الأصل هو إقامة صلات الأخوة التي تنمّ على العقيدة الصحيحة فقد أوصى الإسلام باحترام المسلم وحرمته «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[٣٨] وهذه هي القاعدة التربوية للعلاقات بين المسلمين وبين المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى، وكتب الحديث والمواعظ والسير والتاريخ طافحة بما يمكن ان يشير إلى عمق العلاقة بين المسلمين وبروز الجانب التربوي بينهم، فمن ذلك ما ورد في صحيح البخاري في شأن من يصل الآخرين ويحسن التعامل معهم عن النبي ﷺ «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ قَالَتْ الرَّحِمُ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ بَلَى يَا رَبِّ قَالَ فَهُوَ لَكِ** قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ...**»[٣٩] ومما ورد في طيب الكلام «**الكلمة الطيبة صدقة**»، ومما ورد في التواصل والتعاون «**على كل مسلم صدقة**، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: **يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**، قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: **فيعين ذا الحاجة الملهوف**، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: **فيأمر بالخير أو قال بالمعروف**، قالوا: فإن لم يفعلْ؟ قال: **فيمسك عن الشرّ**

فإنها له صدقة»[٤٠] ومما ورد في الرفق وحسن التعامل... دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت وعليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: **مهلاً يا عائشة ان الله يحب الرفق في الأمرِ كله**، فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: **قد قلت وعليكم**. ومما ورد في تعاون المؤمنين بعضهم مع بعض ما ورد عنه ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعض**»[٤١]، ومما ورد كذلك كان النبي ﷺ أجود الناس وأجود ما يكون في رمضان ومما ورد عنه ﷺ «**ان خياركم أحسنكم أخلاقاً**»[٤٢].

ان ما ذكرناه هنا يبين المبدأ الأساس في الإسلام الا وهو حسن الخلق وحسن التعامل وان خيار الناس احاسنهم أخلاقاً. وان الفرد المسلم يبلغ بحسن الخلق مالا يبلغه غيره من العبّاد والزهّاد أحياناً وان النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يحب الفظ الغليظ... وانه كان يحذر من مساوئ الأخلاق وان اللسان يلقي بصاحبه في النار إذا أورده حامله موارد التهلكة. وان النميمة تحبط عمل الإنسان وينال منها عذاباً في القبر «وان النبي عليه الصلاة والسلام خرج من بعض حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما فقال: **يعذبان وما يعذبان في كبيرة وان لكبير أحدهما لا يستتر من البول وكان الآخر يمشي بالنميمة**، ثم دعا بجريدة فكسرها بكسرتين أو اثنتين فجعل كسرة في قبر هذا وكسرة في قبر الأخر فقال: **لعله يخفف عنهما ما لم ييبس**»[٤٣]، وانه قال في ذي الوجهين «**تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»[٤٤] إن ما تقدّم يشير إلى ما ذكرناه سابقاً وهو أن أساس التعامل بين المسلمين هو الخلق الجم والمعاملة الطيبة التي ترضي الله ورسوله وصالح المؤمنين وان الاقتتال والمحاربة والتقاطع حالة طارئة ينبغي ان يعالجها المسلم بحزم ويعود إلى العلاقة الطبيعية.

٥. كرامة الإنسان

لقد حرص الإسلام على كرامة الإنسان ومتانة سمعته وحذر من المساس بها بأي صورة كانت ومما ورد في ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

والوقوف عند أسباب النزول تقول لنا أن سبب نزول هذه الآيات في قوم بني تميم سخروا من بلال وسلمان وخباب وعمار وصهيب وابن نهيرة وسالم مولى أبي حذيفةﷺ ولا يضر فيه اشتمالها على نهي النساء عن السخرية كما لا يضر اشتمالها على نهي الرجال عنها. فيما روي ان عائشة وحفصة رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها فقالت عائشة لحفصة تشير إلى ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب فنزلت وما وري ان إحداهن كانت تسخر من زينب بنت خزيمة وكانت قصيرة فنزلت وقيل نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل كان يمشي في المدينة فقال له قوم هذا ابن فرعون هذه الأمة فعز ذلك عليه وشكاهم إلى رسول الله ﷺ فنزلت وقيل غير ذلك. ويقول الله تعالى ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾. وهذا الذي نقلناه من السورة الكريمة يدل فيما يدل على ان العقيدة الإسلامية ترسي مبادئ الأخلاق الحميدة والتربية القويمة فتمنع الناس من استصغار الآخرين وتآمرهم بالسلوك القويم المتمثل في احترام الآخرين وعدم النيل منهم ايًّا كان أسلوب النيل هذا.

ومما يتعلق بذلك اللمز المتمثل في السب والطعن وكذلك النبز بالألقاب إذ أمر الإسلام ان ينادي المسلم أخاه المسلم بأحب الألقاب إليه فالأمر أذن يشتمل على «نهي المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض فلا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس وقد جاء النهي في الآية منصباً على سخرية القوم من القوم والنساء من النساء بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية في المجامع ومن أن القوم يسخرون من القوم»(٤٥).

ويذكر القرآن الكريم علة من العلل التي تمنع من السخرية وهي أن المسخور منه قد يكون عند الله أعلى منزلة من صاحبه، فلا يجوز لأحد ان يجترئ على السخرية بأحد ولو كان ممن تزدريه العيون لرثاثة حاله وقلة ماله وقبح صورته فلعله اخلص ضميراً وأنقى قلباً واطهر سريره ولعله يحمل بين جنبيه نفساً كريمة... وفيما يتعلق بالتنابز بالألقاب قال النووي اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره سواء كان صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرهما فقد روي ان الآية نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ليسمع فأتى يوماً وهو يقول تفسّحوا حتى انتهى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال لرجل تنحّ فلم يفعل فقال من هذا؟ فقال الرجل انا فلان فقال بل أنت ابن فلانة

يريد اماً كان يعيّر بها في الجاهلية فخجل الرجل فنزلت الآية فقال ثابت لا أفخر في الحسب بعدها أبداً فنزلت(٤٦).

ويقف النبي ﷺ دون التعرض بكرامة الإنسان ويعلّم قومه التواضع واحترام الآخرين ومما قاله النبي ﷺ حين سئل عن أكرم النّاس قال «**أكرمهم اتقاهم...**» ومما ورد في ذلك أيضاً قول الرسول «**ان الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٤٧) فالمقياس هو الفقه والتقوى وحين سئل النبي ﷺ عن خيار الناس قال «**خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»(٤٨). وإذا تجاوزنا هنا أسباب النزول التي رويت حول هذه الآية وأحاديث الرسول فيمكننا ان نقول: ان شخصية النبي ﷺ تبدو من خلال هذه الصورة في ردعه من يحاول السخرية من صاحبه والأمثلة كثيرة في ذلك في بداية الدعوة الإسلامية كان هناك أمثلة بالسخرية من الآخرين من لونه أو عشيرته أو قبيلة أو ما يتعلق بذلك... وحين قال أحدهم لصاحبه يا ابن السوداء نهاه النبي ﷺ عن ذلك ويمكن ان يحدث في محيط النساء فحين ذكرت إحدى النساء عن صاحبتها ما ذكرت نهاها النبي ﷺ عن ذلك وعدّ هذا القول ضرباً من الغيبة ومنع ان يغتاب المسلم أخاه المسلم بأي نوع كان وعدّ ذلك ظلماً إذا لم يقلع وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولذلك امتنع المسلمون عن سلوك هذه السبل.

آما ظن السوء فهو لا يمكن ان يعدّ من محاسن الأخلاق ولذلك نهى النبي ﷺ عن ذلك طبقاً لما جاء في قوله تعالى ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ومن الظن المحرم ظن السوء بالمؤمنين فقد حرّم الله من المسلم دمه وعرضه وان تظن به السوء والمحرم هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء أما حديث النفس والخواطر والشك فكل ذلك معفو عنه، والمنهي عنه ركون النفس وميل القلب، والأسرار لا يعلمها إلا علام الغيوب فليس لك ان تعتقد سوءاً الا إذا انكشف لك بعيان أو ثبت ببرهان أما ما لم تشاهده ولم تسمعه في أذنك بل وقع في قلبك فالشيطان يلقيه والشيطان فاسق كاذب.

ومما يشتمل عليه المحور هذا الابتعاد عن سوء الظن فظن السوء بالآخرين ليس من مكارم الأخلاق ولذلك عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وهذا الظن الذي دخل دائرة الإثم هو ظن السوء كما هو معلوم. ومن هذا الباب ما يتمثل في التجسس المتمثل بتتبع عيوب الآخرين، والاغتياب الذي عدّه القرآن الكريم آكلاً من لحم أخٍ ميت

والتعبير بهذه الصيغة يظهر بشاعة العمل، فهو ليس أكل لحم حيوان ميت، بل هو أكبر وهو ليس أكل عدو ميت، بل هو أكبر، انه أكل لحم أخٍ ميت ولذلك كان الأمر بشعاً بل غاية في سوء التصرف. وبذلك توجه هذه الآيات الكريمات إلى الابتعاد عما يخلّ بحسن التعامل بل ينهاهم عن استصغار هذه الأمور من غيبة ونميمة وسخرية من الناس وما أشبه ذلك.

٦. ميزان التفاضل

يرتبط الناس فيما بينهم بمجموعة من الروابط، كما ينحدر الناس من أصول وقبائل متباينة، وفي الناس الوسيم، وقليل الوسامة والطويل والقصير، والكبير والصغير، والمنحدر من عشيرة كذا أو من قبيلة كيت... فما ميزان التفاضل بينهم... لقد كانت الناس تخضع لضوابط في التفاضل منها القبلية ومنها المركز الاجتماعي ومنها غير هذين الأمرين، ولكن القرآن الكريم أراد أن يبين لهم ان ميزان التفاضل ليس ما ذهبوا إليه من العشيرة والقبيلة والفخذ والمركز الاجتماعي[٤٩] وكان ان ورث المسلمون من المبادئ ما احدث تغيّراً كبيراً في ضوابط ما قبل الإسلام فإذا أرادوا ان يفتخروا بالقبيلة والعشيرة والفخذ وما أشبه قال لهم الإسلام «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»[٥٠] وإذا شاء الإنسان ان يفاخر بلغته وقومه ناداه ثانية «**لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى...**»[٥١] وإذا قال صحابي لصاحبه «**يا بن السوداء**» قال له النبي عليه الصلاة والسلام «**إنك فيك جاهلية**» ثم وضع الإسلام المبدأ الذي يتفاضل على أساسه الناس انّه التقوى «**ان أكرمكم عند الله اتقاكم**» «أي تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب...»[٥٢].

وكثيراً ما نسمع في ذلك المجتمع ان الحاكم يُعلن ألا من جلدْتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقدمني الا منْ تجاوزت عليه فليأخذْ بحقه قبل أن يأتي يوم لا دينار فيه ولا درهم هكذا اذن سار المجتمع الإسلامي شعاره التسامح بين أبناء المجتمع اذلةٍ على المؤمنين اعزة على الكافرين ولكن هناك ساعات تحيط بالمسلم في احيان قليله لا يحتكم إلى منطق الشرع والحق والعدل فيقاتل اخاه ولا يستمع إلى صوت الإسلام وصوت الشرع وصوت الضمير فيعتدي ويبغي، ففي مثل هذه الحالة أي إذا لم يجد النصح والإرشاد والتوجيه وكانت إحدى الفئتين مصرة على البغي فإن المنطق ومعه الشرع والعقل يوجب ان نقاتل الفئة الباغية،

وحين يرجع الباغي عن غَيّه فالشرع يأمر بالإصلاح بينهما بالعدل فالله يحب العادل ويحبّ المقسط، والمشاحنة ليست من سمة المؤمنين بالله تعالى.

على ان الآية الكريمة ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾ نزلت في قتال بين الأوس والخزرج... وهناك روايات أُخر في أسباب النزول ولكن العبرة في وجوب الإصلاح بينهما ووجوب صد المعتدي عن اعتدائه والقرآن الكريم يوجّه طاقة المؤمن إلى قتال أعداء الإسلام لا إلى التنازع الذي يذهب بقوة الامّة المسلمة التي أرادها الله ان تكون خير أمة أخرجت للناس.

الخاتمة

وأخيراً فيمكننا ان نشير هنا إلى أن سورة الحجرات اشتملت على توجيهات تربوية تهم المسلمين عقائدياً وأخلاقياً واجتماعيّاً ينبغي للجيل المسلم ان يتأملها فيحسن التأمل من اجل ان يترجمها إلى عمل... فهذه السورة: تعلم المسلم أدب التعامل مع الله تعالى ومع رسوله الكريم ﷺ وترشده إلى الأسلوب الذي ينبغي سلوكه حين يختلف المؤمنون في أمر من الأمور وان يحسن التصرف مع ناقلي الأخبار وان يحسن التعامل مع اخوته المسلمين توجيهات ما أحرى المسلمين ان يكونوا على علم بها فالخلق اسّاس من أسس الإسلام «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

هوامش البحث

(١) ينظر العقيدة النسفية.

(٢) في ظلال القرآن: المجلد ٦/ ٣٣٣٦.

(٣) الأيمان: أركانه حقيقته ونواقضه (٧، ٨) دار الفرقان للنشر والتوزيع، د.محمد نعيم ياسين، عمان.

(٤) العبودية، ابن تيمية ١٢، الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع د.محمد نعيم ياسين، عمان.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأحكام برقم ٦٦٢٠.

(٦) ديوان حسان، ص٣٨٨.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الأيمان برقم ٦٣.

(٨) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، ٦١٤٢.

(٩) السيرة النبوية، لابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت٢١٣هـ، مكتبة الصفا، تخريج وتحقيق وليد بن محمد بن سلامه، خالد بن محمد بن عثمان، ط١.

(١٠) الرحيق المختوم، المباركفوري، ٢٥٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٣/ ١٠٠.

(١١) مختصر سيرة الرسول، عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ٣٠٠، حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة محمد صالح العثيمين، ١٤.

(١٢) كتاب التوحيد، صالح بدر فوزان، ٧٩.

(١٣) صحيح البخاري، كتاب الأيمان برقم ١٥.

(١٤) إجلاء الإفهام، ١٢٠.

(١٥) في ظلال القرآن، مج٦/ ٣٣٣٨، تفسير التحرير والتنوير، محمد طاهر بن عاشور، ٢٥-٢٦/ ٢١٧-٢١٨.

(١٦) أسباب النزول للسيوطي، ٢٣٨، روح المعاني، ٣٩٨، أنظر تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت٦٧١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، مج٨/ ١٩٩-٢٠٠.

(١٧) روح المعاني، ٤٠٠.

(١٨) أسباب النزول للسيوطي، ٢٣٩، والظلال، ٣٣٣٨.

(١٩) أسباب النزول للسيوطي، ٢٣٩، والظلال، ٦/ ٣٣٣٩، أنظر في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك، المكتب المصري الحديث، مج٦/ ٥٧٥٨-٥٧٥٩.

(٢٠) روح المعاني، ٦/ ٤٠١.

(٢١) الظلال، ٦/ ٣٣٤٠.

* المقصود بالحجرات: هي غُرف أزواج النبي ﷺ الملاصقة لمسجده ﷺ.

(٢٢) أسباب النزول للسيوطي، ٢٣٩، وينظر روح المعاني، ٢٦/ ٤٠٨.

(٢٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ١٣٠٧هـ-١٣٧٦هـ، جمعية إحياء التراث الإسلامي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ١٢٨.

(٢٤) ينظر الظلال، ٦/ ٣٣٤.

(٢٥) روح المعاني، ٢٦/ ٤١٦.

(٢٦) الصحاح، ف١.

(٢٧) أساس البلاغة ف س ق١.

(٢٨) المحيط في اللغة ف س ق١.

(٢٩) تاج العروس، ٩/ ١.

(٣٠) تهذيب اللغة، ٣/ ١.

(٣١) تفسير ابن كثير، ٣/ ٨٧.

(٣٢) روح المعاني، ١٥/ ٣٦٩.

(٣٣) أسباب النزول للسيوطي، ٢٤٠.

(٣٤) المصدر نفسه، ٢٤٠-٢٤١.

(٣٥) البخاري، ٢٦/ ٤٢٠.

(٣٦) روح المعاني، ٤٢١.

(٣٧) المراغي، ١٢٢.

(٣٨) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٦٥٠.

(٣٩) صحيح البخاري، ٤/ ٥٠.

(٤٠) صحيح البخاري، كتاب الأدب برقم ٥٥٦٣.

(٤١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة برقم ٤٥٩.

(٤٢) نفسه، ٤/ ٥٦.

(٤٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب برقم ٥٥٩٥.

(٤٤) صحيح البخاري، ٤/ ٥٧، ٥٨.

(٤٥) المراغي، ١٣٥.

(٤٦) روح المعاني، ٢٦/ ٤٢٦.

(٤٧) مسلم، ٢٥٥٤.

(٤٨) البخاري، ٣٣٨٣.

(٤٩) أنظر تفسير المراغي، مج٩/ ١٤٢-١٤٣.

(٥٠) سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله برقم ٣٨٩١.

(٥١) مسند أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار برقم ٢٢٣٩١.

(٥٢) ابن كثير، ٤/ ٢٥٩.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- **أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري**، دار صادر بيروت، ط ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢- **أسباب النزول للسيوطي: جلال الدين أبي عبد الرحمن السيوطي، ت٩١١هـ**، تحقيق خالد عبد الفتاح، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٣- **الأيمان، أركانه حقيقته ونواقضه، د.محمد نعيم ياسين**، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان.

٤- **تاج العروس من جواهر القاموس، للسيّد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي**، الجزء السادس، تحقيق عبد الستار أحمد فراجّ.

٥- **تفسير التحرير والتنوير، محمد طاهر بن عاشور**، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

٦- **تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي**، دار الجيل، بيروت.

٧- **تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت٦٧١هـ**، المجلد الثامن دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٨- **تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ٢٨٢هـ-٣٣٧هـ**، حققه عبد السلام محمد هارون، راجعه محمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٩- **تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي**، ط٣، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٠-**تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ١٣٠٧هـ-١٣٧٦هـ**، جمعية إحياء التراث الإسلامي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١١-**حقوق دعت إليها الفطرة وقرّرتها الشريعة، محمد صالح العثيمي.**

١٢-**الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري**، دار الوفاء، ط١٧، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٣-**السيرة النبوية، لأبن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت٢١٣هـ**، مكتبة الصفا، تحقيق وليد محمد سلامة، خالد بن محمد بن عثمان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٤-**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.**

١٥-**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري**، دار العلم للملايين، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٦-**صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي**، تحقيق محمد زهير ناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٧-**صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري توفي سنة ٢٦١هـ**، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، حققه محمد سالم هاشم، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٨-**العبودية، ابن تيمية**، الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، تحقيق د.محمد نعيم ياسين.

١٩-**في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك**، المكتب المصري الحديث.

٢٠-**في ظلال القرآن، سيد قطب**، دار الشروق، المجلد السادس الأجزاء ٢٦-٣١، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٢١-**كتاب التوحيد، صالح بدر فوزان.**

٢٢-**الكشاف، حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ت٤٦٧-٥٣٨هـ**، دار الفكر.

٢٣-**المحيط في اللغة، كافي الكفاة، الصاحب إسماعيل بن عبّاد ٣٢٦هـ-٣٨٥هـ**، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٢٤-**مختصر سيرة الرسول، عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.**